على طريق أسمرا

قصة بقلم محمد أحمد عبد الولي

كان يوما عاديا .. الشمس تنام في منتصف السماء وتمد اشعتها كاذرع كسلى . والطريق نائمة فوق ارض عطشى ، والشمس الباردة تبعث في احشاء الارض شوقا الى الارتواء .

وسحب بلا مطر تسير بكبرياء مضجرة ، فتمد لها الارض لسانا طويلا من الاسفلت .

كنت ضجرا ، وانا احملق في البعيد لعل غبارا ما ينبيء عن اقتراب سيارة . ولا شيء .

نظرت الى الساعة ، وابتسمت امراة تعدت الاربعين كانت قابعة خلف بار وكانت تلاحظ قلقي ، لقد مر علي زمن اشعر بانه طويل . شربت مشروبا وطنيا ، رفضت عرضا لتقديم وجبة غذاء لذيذة . فانا لااشعر بالجوع . كانت عقارب الساعة تشير الى الثالثة بعد الظهر ، انه فصل الامطار في اثيوبيا ، ولكن السماء كانت بلا سحب ، وكان على الطريق قافلة حمير ورجال انصاف عرايا آكل الجوع عيونهم . كانوا يسيرون وفي ايديهم عصي تمثل هزالهم . يخيفون بها الحمير ، كانت المراة تنظر الي .. وفي البار قوارير فارغة . ولا احد سوانا ، ومجموعة من الذباب والطريق نائم وفي احشائه كسل يولد . انني لا احب الانتظار. ولكن هذه المدينة الضائعة على الطريق اجبرتني ان امضغ كل ساعات الصباح في الانتظار .

في نفسي دافع قوي لترك البار ، ولكن .. الى اين ؟

رميت بصري على طول امتدادالشارع ، لا شيء سوى ابنية قديمة رصت على جانبي الطريق ورحت اعد الذباب لعلي اقتل الوقت .. ونظرت الى الساعة :

ـ انك تنظر الى الوقت بكثرة ؟ انك قلق !

نظرت الى عينيها السمراوين :

ـ هل لديك ميعاد هام في العاصمة ؟

ـ نعم ..

كنت اظن ان الكلمة لن تسمع ، لكن آذانا سوداء كانت تلتقط حتى الهمسات . انها ليست جميلة ، في عينيها آثار جمال قد دفن ، انها من مخلفات الحرب الايطالية ،كل شيء قديم هنا .. حتى النساء .

على طول امتداد الطريق شمس باردة ، واناس في ابدانهم كسل ابدي قد تراخوا حتى النهاية . حتى تلك الومس الواقفة على بابها كان ضجر يقتلها ، كانت تنظر الي عبر الشارع ، وكنت شبعا ، هناك اكثر من عشرة ابواب ينام خلفها سرر وعليها آثار جرائم ، وعلى السرر وعند الابواب نساء يبعن شيئا لكل طارق . والسرر تنادي الجميع .

عددت كل مباني المدينة ، دكانان كل يقع على جانب من الطريق، ولكن احدهما كان مغلقا ، واربعة بارات كبيرة فاغرة فاها يمرح عند ابوابها الذباب . يقدمون هناك شرابا وآكلا ومكانا دافئا للنوم مع جسد طري .

كنت قلقا . والذباب يثيرني ، وتفوهت المراة التي بجانبي ، انني زبونها الوحيد منذ غادر المدينة « باص » الصباح .

رأيت قافلة الحمير تقف امام مطعم صغير ، ودخل الجميع فيه . هناك يقدمون شيئا شعبيا ورخيصا .

في طرف المدينة سوق . امام رجال ونساء غلبهم شيء كالنعاس اكوام من البيض واقفاص يمرح الدجاج فيها . ولم يكن هناك أي مشتر.

ـ لماذا انت صامت ؟

في عينيها شيء يطلب الشراء ، لكني لاارغب الا في سيارة تحملني الى العاصمة ، قامت ، ومضت الى الباب ، كانت تنفوه ، وتحت شفتيها الزنجبيتين لمعت اسنان كاللبن .

ـ لقد تاخر « باص » المساء .

ولم اجب عليها .

ـ ربما يكون قد غير طريقه !..

انها تريد شيئا ، ان انام هنا . وهذا شيء محال . بقدر كراهيتي للذباب اكره النوم في المدن الصغيرة الضائعة على طريق أسمرا .

نظرت الى ساقيها ، ان شيئا جذابا يلمع منهما ، ومن خلال الساقين رأيت محطة بنزين قديمة . لقد مر الايطاليون من هنا مرة وتركوا خلفهم الكثير من امثال هذه الاربعينية ، على ظهرها شعر اسود فيه نعومة .. وفيه خشونة ، كانت لدي رغبة حادة في ان المسه .

ـ ألست جائعا ؟ في استطاعتي ان اقدم لك شريحة من لحم البقر .

ولم تنظر الي .

ـ ان الشمس لاتؤذي . هذا ميعاد تساقط الامطار كل عام .

نظرت الى السماء ، كانت فارغة ، وكانت مومس قد تركت سريرها ومضت الى السوق ، كانت تضحك ، وفي البعيد ثار غبار .

ـ اليس هو ؟

ـ كلا انها سيارة صغيرة .

وسكتت لحظة .. قبل ان تضيف ..

ـ قد تضطر للنوم هنا .

عادت الى مكانها . في فمها رغبة للكلام ونبح كلب عندما خرجت قافلة الحمير من مطعمها الصغير . كانوا يمسحون افواههم باذرعتهم بلذة . وفي وجوههم شبع . لكن عيونهم كانت تدمع .

مرقت السيارة دون ان تقف .

وتنهدت المراة .

ـ انه يوم سخيف بلا عمل .

ـ انه يوم عادي .

تركت البار خلفي ، لقد انتهت سجائري .

كان مدكا . في فمه مضغة قات . واعشاب اخرى تنام بين فخذيه.

ـ اريد سجائر .

لم يعد الرجل الى مدكاه ، رحت امزق غلاف العلبة . ووقفت امام البار سيارة نفط ، وكان سائقها أسود . ابتسمت ، لقد مر زمن منذ ان كان كل سائقي سيارات النفط ايطاليين .

ـ نسيت الكبريت .

مد الرجل بالكبريت قائلا :

ـ هل أتيت لشراء طعام ؟

ـ لا ، لقد بعت بعض الطعام هنا .

ـ آه .

واضاف بعد لحظات .

ـ ان الاسواق باردة

ـ البن لا قيمة له .. اما الحبوب فميتة .

ـ لقد تأخر المطر ؟
ـ سيتساقط قريبا .
رأى انني ضجر . لكنه لم يعد الى مكانه . بدأت انظر اليه . وبدا فضول ينمو في أعماقي . كان قصيرا ، شعرات بيضاء تملأ شعر رأسه. عيناه غائرتان ، وكانت لحية صغيرة تهمس على صدغيه ، لكنه كان قويا وفي عينيه ذكاء .
ـ مـن أسمرا ؟
ـ نعم ولكني أعمل في « ويسي »
ـ انت ذاهب الى العاصمة ؟
كنت قد بدأت اميل اليه . ولم تعد لدي رغبة في العودة الـى البار . وسألته :
ـ هل انتم كثيرون هنا ؟
ـ مـن ؟
ـ اقصد اليمانيين .
ـ أوه ، كلا . لقد كنا في زمن الايطاليين ، اما الان فلم نعد هنـا سوى ثلاثة . صاحب ذلك الدكان المغلق واخر يملك طاحونا بالقـرب من هنا .. وانـا .
ـ وأين ذهب الآخرون ؟
هز رأسه بحزن :
ـ مات من مات منهم والبعض انتقل الى العاصمة .. والقلـة عادت الى الوطن .
ـ هكـذا .
مضت لحظة صمت . مرت سيارة كانت قادمة من العاصمة .
واستمر الرجل :
ـ لقد كانت مدينة . اما اليوم .. فحتى السيارات لاتتوقف كثيرا هنا . انها تمر بسرعة .. حتى الاعمال ماتت ..
ـ ولماذا لا تغادر مع الناس ؟

قريبـا

ازمة الجنس
في القصة العربية

بقلم

غالي شكري

منشورات دار الآداب

ولاح شبح ابتسامة على وجهه . وانطفأ شيء في عينيه ..
ـ الى أين ؟
لم أجب . كنت لاأعرف الى اين .
ـ لم يبق لدي شيء سوى هذا الدكان وعائلة . واحيانا اعمـل في شراء وبيع الطعام . هذا اذا ماكان هناك مطر .
رحت انفخ دخان سجائري في الهواء ، كانت المومس قد عادت الـى سريرها . ورأيت نظرات مليئة بالشهوة يوجهها رجل من الباعة اليها . وكانت تبتسم .
ـ انت مولـد ؟
اجبته بهزة من رأسي .
ـ ان ذلك أهون . فانت لاتشعر بانك غريب .. انك ابن البلاد .
ـ وانـت ؟

راح في اغفاءة لطيفة .. وكانت اوراق القات تغيب في فمـه . ورأيت فتاة في السادسة تدلي بوجهها الطفولي عبر الواح خشبية في قلب الدكان . كان وراء البضائع منزل ما .
كانت عيناها جميلتين . وضفائرها سوداء كالحرير ، وفيهـا طفولة عذبة .
ـ بابا .. بابا .. اريد نعنع ..
قالت ذلك باللغة الامهرية .
ـ ادخلي وخذي ماشئت .
اجابها ايضا بالامهرية .
ابتسمت وانا ارى وجهها الابيض المرح وقبل ان تغيب بين الالواح القت ابتسامة تاهت في الفضاء . وسمعت ضحكتها الرائع يحاكي شخصا باللغة الامهرية ..
ـ انظري .. لقد اخذت كثيرا ..
وضحكت ..
ـ الا تفهم العربية ؟
هز الرجل راسه نفيا .
ولم أسأله لمـاذا ؟
ـ الساعة الرابعة ، هل هناك امل في ان يصل « باص » المساء .
ـ حتى الخامسة .. هناك امل .
عبرت الشارع امرأتان . كانتا قادمتين الينا . على ملامحهما سرور بالحياه . كانتا تطلقان النكات وانت احداهما وهي تضحك بشدة .
ـ ايه ايها العربي ، هل تجد عندك منديلا احمر ؟
قام الرجل وعلى ملامحه تعب .
كانتا تملكان جسدين طريين ، وكانت سيقانهمـا تلمـع .. وكانت احداهما تملك نهدين شابين . وكانت الشهوة تفوح من رائحة العطر الذي ملأ الدكان .. وكان الرجل يحاول الابتسام قائلا :
ـ قسما بجمالك ان هذا مكلف علي بدولار ونصف .
قالت احداهما بدلال :
ـ انك تريد ان تكسب منا الكثير . وغمزت .. انت تعرف اننـا اصدقاء .
كانت نظرة مريره قد ارتسمت على عينيه .
وضحكت الاخرى عندما همست صاحبتها بشيء ما .. وكنـت انظر الساعة .. وعيناي معلقتان بالطريق .
وارتفع صوت مبحوح .. فيه لذة كل شياطين الارض ..
ـ ايها القديس جرجس اخر كل السيارات هذا المساء .
نظرت اليهم قائلا :
ـ سأنام عندها في الطريق .
وضحكتا ، قالت احداهما بميوعة :
ـ هل انت بخيل الى هذه الدرجة ؟
قال الصوت المبحوح :
ـ ان منظره جميل ويدل على ان اوراقا حمراء تملأ جيوب بدلته.

وكانتا قد دفعتا ثمن المنديل .. وقبل ان تغادرا المحل قال الصوت المبحوح :

– ان منزلنا هناك ، الباب الثاني الى اليسار لاتنس ، ستجد عندنا كل شيء .. وغمزت بعينها ، وكانت قهقهات تملأ الطريق الضجرة ..

– اعوذ بالله من هذا الفساد . ايام الايطاليين كن كثيرات ، ولكن كان هناك عمل . ولم يكن هناك ميوعة ، اما اليوم فالفساد كثر وقل مع ذلك العمل .. انظر في هذا الشارع وحده اكثر من عشرة بيوت للفساد .. عدا البارات .

كان هناك ظل بجانب الدكان . وحجر كبير كتب عليه باحرف لاتينية اسم معسكر ما .. وعام ١٩٣٨ ، وكان على الحجر طفل في الثامنة ، كان يضحك ، ترك الحجر واقبل الي بخطوات عسكرية ، وادى التحية بحماس . ثم ابتسم . كانت عيناه جميلتين .. لكن فيهما بلها ، وكانت سنه تحرس فتحة فمه حتى لايقفل في وجه الذباب .وسمعته يهمهم . ثم عاد الى الحجر .

– كم مضى عليك منذ قدمت من اليمن ؟

كان يحاول أن يتذكر . ثم قال :

– اعتقد ثلاثين سنة أو اكثر . كنت هنا قبل ان يدخل الايطاليون. كنت أعمل مع قوافل الجمال لسنوات . كنا ننقل السلاح من الساحل حتى المناطق الجبلية ونمد الاحباش بها ليستمروا في المقاومة . قتل الايطاليون قائد قافلتنا . كان اسمه « نعمان سعيد » وتفرقنا بعد مقتله . كان رجلا شجاعا . لا يخاف احدا . وجازانا الاحباش بعد الحرب بالسجن .

هز رأسه لحلاوة الذكرى

– الدنيا لا تزال بخير . فهانذا قد انتهيت الى هذا الوكن من الدنيا . الحمد لله .. لانني لم أضع مثل بقية اصدقائي ....

وقطع حديثه صوت نسائي من الداخل ..

وكان الصوت حبشيا ..

– يا حاج .. يا حاج .. أين ذهب الولد ؟

أجابها بغضب :

– وهل أنا حارس حتى أتابعه ؟

– يا رجل حرام عليك . ابحث عنه حتى لا يضيع او تدهمه سيارة .

وهمهم بضيق :

– مشاكل .. مشاكل

كان الطفل لا يزال على الحجر . وعيونه البلهاء تبحث عن شيء ما.

وصاح الرجل بصوت مرتفع .. وبالامهرية

– يا فاطمة .. يا فاطمة .. تعالي ابحثي عن اخيك أين ذهب .

رأيته يقف . وبخطوات مرتجفة اقترب من باب الدكان .

– ها ... أيش ... من ..

كان الرجل ينظر الى طفله بحنان .

– أين كنت يا منصور ؟. تريد نعنع ؟

هز الطفل رأسه . في وجهه آثار حزن .

وكان الشارع يخترق قلب البيوت الهزيلة والموسسات ينظرن بعيون فارغة .. ولا أحد في الطريق .

– ابنك ؟

– نعم .. أهبل قليل .. ولكنه يدرس في المدرسة الحبشية .

ابتسم الطفل ببلاهة .. وقال :

– فوق .. في الكنيسة .. خرجنا امس .

اقبلت أخته الصغيرة وأخذت تجره من يده .

– أوف .. أوف .. انت مجنونة

ومضى خلفها ضاحكا .

– لماذا تحدثهم بالامهرية ؟ اليس الافضل لو تعلموا لغتهم العربية ؟

كان صمت . وكان حزن . وكانت الشمس ترتفع بعيدا . وصوت محرك سيارة يصل الى اذني من بعيد .

– الجميع هنا يتحدثون بالامهرية . مع من اذن يمكن التحدث بالعربية ؟ نحن اليمانيين هنا لا نلتقي الا نادرا . وانا قد تعبت فلم اعد أذهب الى العاصمة بكثرة . وكلنا هنا يتحدث بالامهرية . والمدارس ايضا .

واطلق ضحكة ..

– لقد بدأت شخصيا أنسى العربية .

وكان ما يقوله صدقا . فقد استعمل في كل حديثه معي كلمات حبشية كثيرة .

كان الباص قد توقف امام البار .

مددت يدي مودعا .

– اتمنى لك حظا سعيدا ..

وهز رأسه شاكرا .. وقبل أن أصل الى الباص عدت اليه قائلا :

– ألا تفكر في العودة الى اليمن ؟

فكر طويلا وقال :

– اليمن .. لقد نسيتها . انني انتظر الموت فقط . لن يعرفني احد هناك اذا عدت . ثم .. ما الذي سأحمله لهم بعد غياب عمر كامل ؟ لا .. سوف أبقى هنا حتى النهاية .. لا أحد بقي معي هناك . لن أعود .. قد يعود ابنائي يوما ما اذا عرفوا ان اباهم كان غريبا .. وقد لا يعودون .. قد يظلون مثلي غرباء .

كانت دمعات تطفو على جفونه .

هممت بأن أغادر . لكن شيئا كان يجذبني الى هذا الرجل القصير ذي العينين الفاترتين . والابتسامة التي فقدت معنى الامل .

كان وجهه يبدو أمامي . واللسان الطويل يمتد الى العاصمة . لقد مر الايطاليون من هنا . ومن هنا مرت جمال كان يصحبها يمانيون . كانت الشمس ترتفع الى السماء .. باردة . وموسم الامطار اخلف وعده .. والطريق الحزين .. يضم مدنا ضائعة وقوما ضائعين .. وكان احدهم ضائعا في مدينة صغيرة على طريق اسمرا .. ضائعا دونما أمل .

اديس ابابا

محمد احمد عبد المولى

مكتبة انطوان

من خيرة المكتبات التي يعتمد عليها

الطالب المثقف لتأمين كتبه

مكتبة انطوان

تروي عطش المثقفين من مكتبتها العامرة